الكتابة للأطفال

والمعايير التي تساعد في تطوّرها

د. ألبير مُطْلَق(*)

بدا لكثيرين، أوّل شيوع الكتب المخصّصة للأطفال، أنّ الكتابة للأطفال هي نوع من موجَز لما يُكتَب للكبار. وكثيراً ما كانت النصوص التي نتعلّمها في طفولتنا مأخوذة كما هي، أو مع تعديل طفيف، من نصوص قديمة مكتوبة، بطبيعة الحال، للراشدين ولأهداف توجيهيّة. أذكر مثلاً قصّة "القرد والغَيْلَم" المأخوذة من كتاب "كليلة ودمنة"، والتي لم أفهم الكثير منها في ذلك الوقت، ولا فهمت معنى الغَيلَم، الذي تبيّن لي، بعد زمن طويل، أنّه ذَكَر السلحفاة. من حسن الحظّ أنّ الكتّاب والناشرين والمحرّرين والمعلّمين والأهلين أخذوا يعون أهمّيّة الكتابة للأطفال باعتبارها فنًّا قائمًا بذاته، ويسعون إلى وضع قواعد ومعايير لذلك الفنّ بحيث يحقّق الغايات المرتجاة منه. هل من الضروريّ، كما سألني صحفيّ مرّة، أن يكون مَنْ يكتب للأطفال أديبًا؟ في رأيي أنّ مَنْ يكتب للأطفال ينبغي أن يكون أكثر من أديب وأقلّ من خطيب. الكتابة للأطفال ليست، أو لم تعُدْ، أدبًا بالمفهوم القديم، أي براعة في الإنشاء ومنبراً للوعظ. لأدب الأطفال شروط فنّيّة ونفسيّة. وأصبح، ككلّ أوجه الثقافة اليوم، خاضعًا لمواصفات. من هذه المواصفات مثلاً، مراعاة السنّ. ذلك وحده يتطلّب أن يكون الكاتب قادراً على أن يقدّم للطفل، في سنّ معيّنة، أدبًا مشوّقًا بلغة يفهمها الطفل ويحبّها. أدب الأطفال ينبغي أن يكون مشوِّقًا ومثقِّفًا، حافزًا على حبّ المعرفة، مهذِّبًا للنفس، معبِّرًا عن قيم المجتمع، عصريًّا في أفكاره، وينبغي أن ينمّي الإحساس بالجمال، ويطلق الخيال، ويحمل لواء اللغة الصحيحة. ذلك كلّه يعني أن يكون كاتب الأطفال كاتبًا ورسّامًا (ولو بالكلمات) ومفكّرًا ولغويًّا وشاعراً وموسيقيًّا (ولو بالكلمات) وأن يكون أبًا وأمًّا.

ولعلّه من المناسب أن نذكر أنّ مواصفات الكتابة للأطفال ليست قالبًا جاهزًا يصلح لكلّ مناسبة ولكلّ طفل، فلكلّ فئة عمر مواصفات ولكلّ تمايز في التقبُّل معالجات. يميل بعض التربويّين إلى التحدُّث عن أنماط القراءة وكثيراً ما يرون أنّ معظم الأطفال يبدءون القراءة في سنّ تتراوح بين

(*) رئيس دائرة نشر كتب الأطفال – مكتبة لبنان ناشرون.

سنتين ونصف السنة وأربع سنوات ونصف . في هذه المرحلة ينظر التربويّون إلى الكتب المصوَّرة وكيف أنّ الأطفال يستنبطون المعاني من الصور. على أن الآباء والأمّهات ينظرون عادةً إلى القراءة نظرة أكثر تحديداً. يرون أنّ القراءة هي العمليّة التي يصل الأطفال فيها إلى المعاني عن طريق رموز الكلمات. من ناحية واقعيّة، بإمكاننا القول إنّ السنوات بين عمر السنتين ونصف السنة وعمر الأربع سنوات ونصف هي سنوات نُعدّ فيها الأطفال للقراءة – أي هي مرحلة ما قبل القراءة. ابتداءً من عمر الأربع سنوات ونصف يبدأ الأطفال بتمييز الكلمات المطبوعة وربطها بمعانٍ.

أوّلاً: أسلوب الكتابة للأطفال الأصغر سنًّا:

لأسلوب الكتابة دور كبير في تحبيب الأطفال بالقراءة. ولعلّ المعيار الأساسيّ هنا هو أن يكون الأسلوب مفهومًا وفي مستوى الطفل العقليّ والثقافيّ. من حيث الألفاظ، عمومًا، يستحسن أن تتّسم بالوضوح والألفة، فلا تُستخدَم ألفاظ غريبة تنفّر الطفل وتجعل متابعة الأحداث مهمّة شاقّة. ومن حيث الجمل والصيغ التعبيريّة، يُستحسن استخدام الجمل القصيرة، والابتعاد عن الصيغ المعقّدة والتعابير المجرَّدة، والإكثار بالتالي من التعابير التي تتناول الملموسات والمحسوسات.

على أنّ من النواحي التي يعاني منها أطفالنا في المدرسة الانتقال المفاجئ من لهجة يتعلّمونها من والديهم إلى لغة فصحى يقرؤونها في الكتب المدرسيّة. أحيانًا نجد أنّ علينا أن نكتب بلغة مفرطة في الفصاحة فتكون النتيجة أنّنا نبتعد عن أصالة اللغة ونصعّب الأمور على أطفالنا. أمثّل على ذلك بعبارة نقرؤها دائمًا في الكتب ونسمعها في المسلسلات هي: كم هو جميل! في العربيّة نقول ببساطة: ما أجمله! وهذا تمامًا ما يقوله الطفل، مع تعديل صوتيّ بسيط تستدعيه هذه اللهجة العربيّة أو تلك. أعتقد أنّ موضوع التراكيب المبسَّطة والتي لا تبدو غريبة عن تعابير الأطفال جدير بأن يُدرَس في الجامعات، ولعلّنا نجد جسراً يقرّب أطفالنا من اللغة الفصحى فيسهل عليهم إتقانها. من الأساليب التي تشيع اليوم في كتب الأطفال في بعض اللغات استخدام كلمات أساسيّة وتراكيب معيّنة والتدرُّج بها مرحلة بعد مرحلة. استخدمت مكتبة لبنان ناشرون هذه الوسيلة قبل نيّف وعشرين عامًا في سلسلة لاقت نجاحًا كبيراً هي سلسلة "أنا أقرأ"[1] القصصيّة. عادت مكتبة لبنان ناشرون مؤخّرًا فنشرت سلسلة "أنا أقرأ" غير القصصيّة وسلسلة "حكايات ومطالعات"، وكلتا السلسلتين تقومان على مبدأ التدرُّج نفسه. الكلمات الأساسيّة مصطلح يصف مجموعة من الكلمات الأكثر استعمالاً في اللغة. في اللغة الإنجليزيّة، قام لغويّان (W Murray and J McNally) ببحث حول ٢٠ ألف كلمة عامّة، وتبيّن لهما أنّ ١٢ كلمة فقط

(١) الكتب كلّها الوارد ذكرها في هذه الدراسة هي من منشورات مكتبة لبنان ناشرون.

تشكّل ربع ما يُستخدَم في مألوف الحياة اليوميّة في التكلُّم والقراءة والكتابة، وأنّ ١٠٠ كلمة تشكّل نحو نصف ما يُستخدَم، وأنّ ٣٠٠ كلمة تشكّل نحو ثلاثة أرباع ما يُستخدَم. لا أعلم ما إذا كنّا قد قمنا في اللغة العربيّة بمثل هذا النوع من الدراسة، وقد يكون من الصعب أن نصل إلى نتائج دقيقة شاملة، بسبب تباين لهجاتنا بالنسبة للّغة الفصحى وأحيانًا تباين المصطلحات التي تدلّ على أغراض الحياة اليوميّة بين بلد عربيّ وآخر. إلاّ أنّ مثل تلك الدراسة، أيًّا كانت نتائجها، يمكن أن تساعد كثيرًا في وضع برنامج قراءة من مراحل تتدرّج مع أبنائنا وبناتنا خطوة خطوة من سنّ ما قبل البدء بالقراءة إلى سنّ القراءة المتقدّمة. مثل ذلك البرنامج سيكون مثاليًّا للصفوف التمهيديّة والابتدائيّة، ومثاليًّا لمتعة القراءة المنزليّة. في كلّ مرحلة تُقدَّم حكايات ومعلومات تتدرّج، مرحلة بعد مرحلة، من عبارات بسيطة ومفردات أساسيّة تتكرّر وموضوعات قريبة إلى ذهن الطفل، إلى مفردات متنامية وتراكيب وموضوعات تمكّن، في نهاية الأمر، من التحكُّم بأنواع التراكيب المختلفة في اللغة العربيّة ومفرداتها وأساليبها.

لعلّ من الأمور الواجبة ضبط النصوص كلّها بالشكل التامّ. الشكل التامّ يمكّن من القراءة السليمة، لكلا الطفل ووالده أو والدته، ويساعد، مع الوقت، في اكتساب السليقة اللغويّة السليمة. على أنّ الضبط بالشكل التامّ لا يعنيّ تشكيل الحروف كلّها حرفًا حرفًا، فذلك مدعاة للتشويش. المقصود من ذلك تشكيل الحروف التي تساعد في القراءة السليمة، دون تلك التي يكون تشكيلها أشبه بزينة. لا نحتاج، مثلاً، إلى تشكيل الحروف التي تسبق حروف المدّ أو تسبق التاء المربوطة. كلمة "كان"، على سبيل المثال، نحتاج فيها إلى تشكيل حرف النون فقط. كلمة "كانوا"، على سبيل المثال أيضًا، لا نحتاج إلى تشكيل أيّ حرف من حروفها. كلمة "كبيرة" نحتاج إلى تشكيل الكاف دون غيرها، باستثناء التاء المربوطة التي نحرّكها وفق موقع الكلمة من الجملة. لقد قمت باختبار بسيط لمعرفة ما يمكن توفيره من حركات بين تشكيل الحروف كلّها وتشكيل اللازم منها للقراءة السليمة فتبيّن لي أنّ ما نوفّره يمكن أن يزيد على نصف مجموع الحركات. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ من الواجب أيضًا استخدام الحروف الكبيرة المريحة لعينَي الطفل. وكلّما كان الطفل أصغر دعت الحاجة إلى حروف أكبر. الحروف الكبيرة من ميزتها أيضًا أنّها تجعل الحركات تبدو أقلّ ازدحامًا. في هذا المجال يُستحسَن أن يتراوح عدد صفحات كتب الأطفال الصغار بين ٢٤ و ٣٢ صفحة. للطفل قدرة محدودة على التحمُّل، وإذا تجاوز عدد صفحات الكتاب قدرته تلك أصابه الضجر وقد لا يرغب في العودة إليه. ولا بأس أن تشكّل كلّ صفحتين متقابلَتين من صفحات الكتاب وحدة شبه متكاملة أو مشهدًا واحدًا بحيث إذا رأى الطفل أن ينقطع عن القراءة في موضع معيّن سَهُل عليه بعد ذلك الرجوع إلى الكتاب ومتابعة قراءته أو الاستماع إليه. وللرسوم في قصص الأطفال الصغار دور أساسيّ ليس فقط في بعث البهجة في

نفوسهم وتنشيط خيالهم وتثقيفهم، بل أيضًا في مساعدة النصوص على رواية الحكاية. الواقع إنّ الحكايات المصوّرة لمَن هم دون ثلاث السنوات من العمر كثيرًا ما تخلو من الكلمات، لذا ندعوها كتبًا مصوَّرة. وكلّما كانت سنّ الطفل أصغر كانت الكلمات أقلّ والرسوم والصور أكثر وأكبر حيِّزًا. التعاون بين الكاتب والرسّام في هذه المرحلة يكون عادة وثيقًا، إذ قد يترك الكاتب للرسّام تفاصيل يصعب على الأطفال استيعابها عن طريق الكلمات. للرسوم أيضًا دور أساسيّ في تنشيط الأحاديث بين الطفل وأهله، إذ يمكن من خلال الألوان والأشكال والمواقف التي تظهرها أن يطرح الأهل على طفلهم أسئلة وأن يجيبوا عن أسئلة يطرحها، وفي ذلك توسيع لمداركه، وتعزيز لمخيّلته وحبّه للاستطلاع، وفيه فوق ذلك تمتين للرابطة العاطفيّة التي تربطهم به. وفي مرحلة ما قبل القراءة يمكن أن يكون للرسوم والصور دور في تطوير قدرة الطفل على الملاحظة والاستماع. كما يمكن أن تكون مصدر ألعاب، كأن يُطلَب من الطفل أن يختار الصورة التي يراها أجمل من غيرها وأن يتحدّث عمّا يراه فيها.

ثانيًا: كتب الصغار القصصيّة:

يميل الكتّاب اليوم في قصص الصغار إلى أن يجعلوا منها ميدانًا لأفكار وأنشطة، وأحداث مشوِّقة بطبيعة الحال. كثيرًا ما يقدّمون للقصص بمقدّمة تلفت النظر إلى خصائصها، وإلى طريقة تقديمها للأطفال الصغار. كما يمكن أن يختموها بأنشطة تقوم على ما ورد فيها من أحداث وأفكار، وهي أنشطة ممتعة تبعث على التفكير وتساعد في تزويد الطفل بمهارات يدويّة وفنّيّة، وتنبّه استجابته لما يرى ويسمع ويشمّ ويلمس، وتعزّز ثقته بنفسه. وكثيرًا ما تشتمل قصص الصغار على أغان. أغاني الأطفال تعزّز التطوّر اللغويّ وتوسّع الخيال وتساعد في تكوين فهم مبكّر لتتابع الأحداث وفهم القصص، وتشكّل نشاطًا ممتعًا للغاية. وهي بالإضافة إلى ذلك تشجّع على القيام بحركات إيقاعيّة وعلى التحكُّم بالجسم. تفتقر كتب الأطفال العربيّة لهذا النوع من النشاط، ذلك أنّ أغاني الأطفال الشعبيّة والتراثيّة عندنا أساسها اللهجات المحلّيّة وليس اللغة الفصحى، فنعزلها لذلك عن عالم الكتب. وما أُدخل من أغان وأناشيد إلى كتب الأطفال في السنوات الأخيرة غير ملحَّن في معظمه. وهو في غالبهَ مقطوعات شعريّة يعود بعضها إلى بدايات القرن العشرين المنصرم. أدخلتْ مكتبة لبنان ناشرون أغاني ملحّنة للأطفال في كتب العلوم التي أصدرتها للسنوات الابتدائيّة: الأولى والثانية والثالثة. والأغاني كانت مقدّمات لفصول في العلوم، وكلّ أغنية تمهّد للفصل الذي تتصدّره. هذه أوّل محاولة من نوعها، على ما أعلم، في اللغة العربيّة، وقد أثبتت التجارب التي أُجريتْ على أطفال المدارس أنّها وسيلة ممتازة لتعريف الأطفال بالعلوم وتشجيعهم عليها. كتب العلوم هذه هي جزء من مشروع كبير تعدّه مكتبة لبنان ناشرون لتطوير تدريس الرياضيّات والعلوم في بلدان العالم العربيّ.

لا بدّ أيضًا من ملاحظة أنّ الأطفال في سنّ مبكِّرة يميلون إلى أن تكون شخصيّات الحكايات من الحيوانات، خصوصًا الحيوانات اللطيفة. وحتّى الحيوانات المفترسة، كالأسد والنمر، ينبغي أن تُصوَّر على نحو طريف لطيف. يميل الأطفال الصغار أيضًا إلى شخصيّات من الأطفال مثلهم، فهذا يجعل تلك الشخصيّات أقرب إلى قلوبهم ويُشعرهم بأنّ ما يدور في الحكاية من أحداث ملْك لهم وجزء من حياتهم الواقعيّة وجزء من مخيّلتهم. يَطيب للأطفال أن تستحوذ على تفكيرَهم شخصيّة أساسيّة واحدة في الحكاية، ذلك أنّ تعدّد الشخصيّات الرئيسّة أو حتّى الثانويّة يشوّش تفكيرهم. يمكن في مرحلة تالية أن تتعدّد الشخصيّات الثانويّة، وهو ما قد يساعد في إغناء الحكاية وتطويرها. ومع أنّ الغاية الأولى من الحكايات، في هذه السنّ بصورة خاصّة، ينبغي أن تُوَجّه إلى إمتاع الأطفال وإسعادهم، فإنّ الاتّجاه أخذ يميل مؤخّرًا إلى جعل الحكايات مصدر ثقافة مبكِّرة وتوجيه. في سلسلة "تعالُ نقرأ" التي نشرتها مكتبة لبنان ناشرون (وتتألّف من ١٩ كتابًا) تركيز على الفوائد التربويّة والعلميّة. كتاب "مَنْ أنا" يروي حكاية تحوّل الضفدع من شرغوف إلى ضفدع مكتمل النموّ؛ وكتاب "عالم بلا أعداد" يروي حكاية فتًى يكره الأعداد ثمّ يكتشف أنّ عالمه لا يستقيم من غيرها؛ وكتاب "أنا أحبّ ما أنا" يشجّع الأطفال على أن يكونوا راضين عن أنفسهم ـ عن أجسامهم، ومشاعرهم، وإنجازاتهم؛ وكتاب "سوبر بابا" يشجّع الأطفال على الثقة بالنفس والقدرة على تمييز الوهم من الواقع. شبيه بذلك كتب تشجّع الأطفال على طرح الأسئلة حول العالم الذي يعيشون فيه، وتقدّم معلومات مصوّرة مشوّقة تعرّف الأطفال، من خلال ما يألفونه في حياتهم اليوميّة، إلى أسس العلوم. من ذلك مثلاً سلسلة "نحلات صغيرات" التي هي مصدر رائع من مصادر التعلُّم النابضة بالبهجة.

ثالثًا: الكتب القصصيّة للأطفال الأكبر سنًّا:

تغلب النظرة التعليميّة في مدارسنا على كتب المطالعة. ننظر إليها على أنّها كتب تعلّم أطفالنا اللغة الفصيحة والجملة الصحيحة والقدرة على فهم النصوص وتحليلها. نحن لذلك نزوّد كتب المطالعة بما تعارفنا على تسميته بالاستثمار التربويّ. هذا شيء مقبول بالنسبة إلى الكتب التي تكون جزءًا من العمل المدرسيّ. أمّا بالنسبة إلى كتب المطالعة الحرّة، فيُستحسن أن تكون الغاية الوحيدة منها متعة القراءة، من غير أن نضع على الطفل عبء الواجب المدرسيّ الذي قد ينفّره من الكتاب. إنّ الأهداف التربويّة الأخرى التي تسعى إليها المدرسة يمكن أن تتحقّق في كتب المطالعة تلقائيًّا، إذا تَوافَر الشرط الأساسيّ وهو متعة القراءة.

الأطفال من ٨ إلى ١٢ سنة يكونون شديدي الرغبة في القراءة، تتنوّع عندهم موضوعاتها، وتزداد القصص طولاً، وتزداد العقد تعقيدًا، وتتعدّد الشخصيّات الثانويّة ويزداد تشابكها في ثنايا الموضوع عمقًا. هذه السنوات بحقّ هي عصر القراءة الذهبيّ للعديد من الأطفال. على أنّه من

المستحسن في هذه المرحلة، كما في غيرها من مراحل الطفولة، أن نتذكّر أنّ المواصفات ليست ملابس جاهزة، وأنّ تفسيرها أو الأخذ بها أو بأجزاء منها يعود إلى الكاتب ونظرته إلى الأدب وإلى قضايا المجتمع. من ذلك أنّ الكثير من الكتب تميل إلى تصوير البشر على أنّهم خير مطلق أو شرّ مطلق. ذلك يعطي الطفل صورة خاطئة عن الحياة، ويجعله ينظر إلى أشخاص على أنّهم أشرار وإلى أشخاص آخرين على أنّهم أخيار، وهو ما يعرّضه في مستقبل حياته إلى مفاجآت غير سارّة وإلى صدمات. لعلّه من الخير تصوير تداعي الحياة اليوميّة، وما تتكشّف به من أحداث ومفاجآت وتقلّبات، ففي كلّ إنسان حبّ للخير، وشيء من الغيرة، ولحظات غضب أو رضًى. لو أنّنا صوّرنا أشخاصًا مثاليّين لتبادر إلى ذهن الطفل أنّه دون المستوى المطلوب، وأنّ ما يحسّ به من مشاعر طبيعيّة علّة سببها نقص فيه. إنّ من الميزات الفريدة التي تتّصف بها بعض الحكايات أنّها تخلو من الشخصيّات الشرّيرة، فلا تقوم على أساس أنّ في الدنيا فريقًا شرّيرًا يكيد لفريق صالح، بل على أساس ما تتكشّف به الحياة من أحداث تلقائيّة غنيّة.

يستحسن أيضًا تجنُّب رسْم أنماط ثابتة لفئة من الناس، كأن نصوّر الساحرة الشرّيرة امرأة عجوزًا ذات أنف طويل وتحمل عكّازًا. إنّ مثل هذا التصوير النمطيّ يؤدّي إلى أن ينظر الطفل إلى كلّ امرأة تتّصف بهذه الصفات على أنّها امرأة شرّيرة، وكثيرًا ما يخاف منها. تميل بعض الكتب أيضًا إلى استخدام موضوع السحر على أنواعه كمادّة للتشويق والإثارة. في كتب الجنّيّات سحر مرتبط بخوارق لا تفسير لها. في استخدام هذا النوع من الإثارة أذًى للطفل الذي سيحسب أنّ الأمور كلّها تُحلّ بسحر ساحر، بلحظة تنقلب الأمور وتتغيّر الأحوال ويحصل كلّ إنسان على ما يريد. إنّ لكتب الأطفال منطقًا، وهذا المنطق ينبغي أن يفرض نفسه على الأحداث. إذا كان الخيال يتطلّب أحيانًا الاستعانة بأمور غير واقعيّة، أو فلنقلْ سحريّة، فهذا مقبول شرط أن يكون في ذلك خدمة أهداف القصّة وأحداثها وأن تكون الحلول في النهاية مرتبطة بالتصرُّف المنطقيّ.

من المهمّ أيضًا أن تتناول الكتابة للأطفال قضايا عصريّة ترتبط بحياتهم وتمتّن صلتهم بالمجتمع وبالطبيعة من حولهم. من أهمّ هذه القضايا الدفاع عن الطبيعة والصداقة مع كائناتها والحفاظ على البيئة. يستحسن على من يكتب للأطفال أن يوجّههم إلى التعاون مع الطبيعة وليس معاداتها، يوجّههم إلى أن ينظروا إلى أنفسهم على أنّهم جزء من هذا العالم الذي يعيشون فيه، وليسوا منفصلين عنه، وأن يشجّعهم على محبّة الأرض والهواء والماء والأزهار والأطيار والفراشات وسائر كائنات البرّيّة ومعاملتها برفق. ومن هذا الباب أيضًا مسألة تناوُل موضوعات من الحياة، مثل المرض، والمشكلات الاجتماعيّة من طلاق أو خلاف في الأسرة، أو حتّى الموت. لا نستطيع أن نغلّف الطفل في شرنقة ونحجب عنه ما حوله. الحياة معقّدة ولا بدّ من إعطاء الطفل صورة صحيحة تهيّئه لمشكلاتها. إنّ تعرُّف الطفل إلى مشكلات الحياة من خلال الكتب أشبه

بالتحصين أو التطعيم ضدّ الأمراض. في هذا المجال، يحرص كثير من الكتّاب على أن ينهوا حكاياتهم دائمًا بخاتمة سعيدة. أرحّب شخصيًّا بالنهايات السعيدة، خصوصًا إذا كانت أحداث القصّة تمهّد لها. إلاّ أنّنا لا نستطيع أن نعزل الأطفال عن وقائع الحياة، حتّى لو أردنا ذلك. لذا المهمّ في الخاتمة لا أن تكون سعيدة أو غير سعيدة، بل أن تكون خاتمة طبيعيّة، أي أن تكون الخاتمة التي تمهّد لها أحداث القصّة. في كتاب "أمير الأصداف" تنتهي القصّة بزواج الأميرة من الصيّاد، وكان ذلك خاتمة طبيعيّة هيّأتها أحداث القصّة وتطوّر شخصيّاتها؛ وفي كتاب "السنبلة الذهبيّة" تنتهي القصّة بموت البطل، وكان ذلك أيضًا خاتمة طبيعيّة لقصّة تقوم فكرتها على دورة الفصول، لكن نَجَم عن موت البطل أنّ قبيلته حصلت على السنبلة التي تعلّمت كيف تزرع حبوبها وتأكل من نتاجها عامًا بعد عام، فلا يجوع أحد من أبنائها أبدًا، تمامًا كما وعد بَركة، بطل الحكاية. إذًا بعد الموت تكون حياة ويكون أمل.

على أنّه أيًّا كان الموضوع الذي يتناوله كاتب الأطفال، وأيًّا كانت الرسالة التي يسعى إلى إيصالها إليهم من المهمّ دائمًا أن يكتب على نحو بعيد عن الوعْظ. من المهمّ أن تكون الرسالة خفيّة يترك للقارئ أن يستنتجها بنفسه. الأطفال ينفرون من الوعْظ ومن النصح المباشر، وهم أذكياء يدركون ما يريد الكاتب أن يوصله إليهم، حتّى ولو لم يصرّح به. الأطفال يحبّون أن يروا أنفسهم في أبطال الحكايات، وعن طريق هؤلاء الأبطال، بتصرّفاتهم وأحداث حياتهم، تصل أفكار الكاتب إليهم.

من المهمّ أيضًا في كتب الأطفال أن نتجنّب العنف، وخصوصًا العنف غير المبرَّر. الطفل مرآة شفّافة تعكس ما يقع عليها. وهنا خطر العنف في كتب الأطفال وفي وسائل الإعلام المختلفة. يُخشى أن يعشّش العنف في نفوس الصغار فيكبر معهم ويكون لهم أسلوب حياة. من المهمّ أن يقف الكاتب ضدّ العنف، وأن يميّز بين العنف والشجاعة. الناس يخلطون أحيانًا بين العنف والشجاعة. العنف طاقة سلبيّة، والشجاعة طاقة إيجابيّة. في كتاب "زارع الريح" تظهر شجاعة بطل القصّة، لا عندما كان يحاول أن يدمّر مزرعة جاره، كما كان يحلم منذ طفولته، بل عندما أنقذ بنفسه مزرعة جاره من الدمار. على أنّ القول بالشجاعة المطلقة التي لا تعرف الخوف غير صحيح أيضًا. من الخير أن نعطي الطفل هامشًا يتحرّك ضمنه. الخوف شيء طبيعيّ. لا نريد أن يتوهّم الطفل أنّه جبان لمجرّد أنّ الخوف يدخل قلبه. حبّذا لو أرينا أطفالنا صورًا أخرى من الشجاعة، غير البطش والقوّة البدنيّة، كشجاعة الثبات على المبدأ، وقول الحقّ، والقيام بالواجب، وغير ذلك من أنواع الشجاعة التي تزيد من قدرتهم على العيش في مجتمع متعاون متآلف. في كتاب منشور موجَّه للأولاد حكاية عن عنترة الفتى. يروي الكاتب كيف أنّ عنترة استاء يومًا من أمّه لأنّها سألته أن يعينها في بعض الأعمال المنزليّة، وقرّر لذلك أن يعاقبها. خرج إلى البرّيّة وعاد

يحمل صرّة قدّمها إليها. فتحت أمّه الصرّة وزعقت مذعورة، فقد كان فيها رأس أسد مضرّج بالدماء. وفي حكاية أخرى استُشرتُ في أمر نشرها، (ومن حسن الحظّ أنّها لم تُنشَر)، أنّه كانت بين أسد ونمر عداوة، وأنّ الأسد أراد أن يتحدّى النمر وينازله في معركة حياة أو موت. لكنّ النمر توارى عن الأنظار فلم يمكّن الأسد من تحقيق أمنيّته. فذهب الأسد إلى بيت النمر وقتل ولديه الصغيرين ليستثير غضبه ويُكرهه على الخروج من مخبئه ومواجهته. في هاتين القصّتين، كما تلاحظون، أخطاء وأخطار. في الأولى قد يفهم الأولاد أنّ العمل المنزليّ معيب، وأنّ الاستياء من الأمّ ومعاملتها بفظاظة أمر مقبول، وأنّ في قتل الحيوانات بطولة. وفي الحكاية الثانية قد يفهم الأطفال أنّ قتل الصغار لاستدراج الكبار شيء مقبول. وهذا من أفظع الأخطار! قد يقول قائل، إنّ العنف جزء من الحياة. صحيح، لكن علينا أن نبيّن للأطفال أنّ العنف لا يحلّ المشكلات بل يزيدها اضطرابًا. هذا ما أعتقد أنّ على كتّاب الأطفال أن يقولوه لأصدقائنا الصغار.

ولعلّ ممّا يُستحسَن التنبُّه إليه ألاّ نفرض خيالنا على الأطفال. كثيرًا ما يرى الأطفال في أحداث الحكايات ما يريدون أن يروه، ويفسّرونها كما يسمح لهم خيالهم، وبما يعبّر عن أحلامهم. أحلام الأطفال ليست متطابقة، وليست خُيالاتهم متشابهة. لذا علينا أن نستفيد من هذا التنوّع فنترك لكلّ طفل أن يسهم هو شخصيًّا في ملء الفُسَح المتروكة له. بإمكان الكاتب أن يترك بعض التفاصيل والتلميحات للرسّام "يرويها" بريشته. الرسوم بهذا المعنى تكون مكمّلة للنصّ ومصدر إيضاح.

وأرى بصورة عامّة أن ننظر إلى اللغة على أنّها وسيلة لنقل الأفكار، لا أنّها بذاتها موضوع جمال. أمّا بالنسبة للأسلوب، فمن الخير في هذه المرحلة من العمر أيضًا اعتماد البساطة والوضوح. أشجّع عدم تزيين اللغة بالمحسّنات البديعيّة فهذه تصرف الطفل عن المعنى الحقيقيّ وتجعله يتعلّق بالشكل. وأرى أن نبتعد عن الألفاظ الضبابيّة التي يصعب على الطفل تحديد معناها الدقيق لأنّها تبعده عن التفكير المنطقيّ، وألاّ نكرّر المعاني بألفاظ مختلفة فالتكرار يعلّم الطفل كثرة الكلام. جمال الأسلوب في البساطة، والتعبير المباشر، والدقّة، والصحّة اللغويّة، والحسّ اللغويّ. الحسّ اللغويّ هو الذي يمكّن الكاتب من تركيب المعاني الواضحة البسيطة والدقيقة في أصوات متآلفة تغني الكتابة بموسيقى داخليّة بهيجة. وهذا أشبه بمقدرة الرسّام الماهر على استخدام الألوان عينها التي يستخدمها سواه ولكن بطريقة مختلفة.

رابعًا: كتب الأطفال غير القصصيّة:

الفورة الهائلة التي عرفتها كتب الأطفال القصصيّة رافقتها فورة في كتبهم غير القصصيّة. وهذه الكتب لفئات العمر المختلفة من الأطفال، تبدأ معهم في سنّ مبكّرة وترافقهم طوال مرحلة

الدراسة الابتدائيّة وما بعدها. من مواصفات تلك الكتب أنّها توافق فئة العمر الموجَّهة إليها. معلوماتها مبسَّطة وموضَّحة بالرسوم البهيجة ومعزَّزة بالتجارب والأنشطة الممتعة والمثقّفة. من ذلك سلسلة "دنيا العلوم للأطفال"، وهي كتب تهيّئ الأطفال للتعرُّف إلى العلوم والتآلف معها ومحبّتها، وتربط بين العلوم والحياة؛ وسلسلة "دنيا التكنولوجيا للأطفال"، وهي كتب تعرّف الأطفال بالآلات البسيطة والمبادئ الأساسيّة التي تحكُم تلك الآلات، وتشجّع على تحرّي العوامل التي حفَزت الناس قديمًا على اختراع الآلات، وعلى تتبُّع عمليّة تطويرها، يرافق ذلك تجارب آمنة وسهلة وأنشطة تطبيقيّة ومقترحات لمزيد من البحث العلميّ. من مواصفات الكتب غير القصصيّة أيضًا أنّها كتب تتناول قضايا معاصرة تطال حياتنا اليوم، مثل البيئة وموارد الطاقة المستدامة، من تسخير للطاقة الشمسيّة وقدرة الرياح والقدرة الحراريّة الأرضيّة وطاقة البراكين والطاقة الحيويّة. ومن مواصفاتها أيضًا أنّها معزّزة بأحدث ما استجدّ من اكتشافات في موضوعاتها، سواء أكان ذلك في علوم الفضاء أو الصحّة أو حتّى في مبتكرات الطبخ الصحّيّ. العلوم والمعارف بعامّة تقفز قفزات ولا تخطو خطوات. لذا، كان من الأهمّيّة بمكان أن تشتمل المعلومات التي تُقدَّم إلى الناس على أحدث ما استجدّ في المعارف. القضايا المعاصرة عديدة، منها، على سبيل المثال، وعْي الحقوق والواجبات، حقوق الإنسان عمومًا، حقوق المرأة ومنع التمييز ضدّها، حقوق الطفل ومقاومة عمالة الأطفال، مقاومة التعصُّب على أشكاله، الانفجار السكّاني، الإدمان والوقاية منه، احترام العمل، الديمقراطيّة، العمل التطوّعيّ. على أنّه من الأهمّيّة بمكان في هذه الموضوعات أن نقيم توازنًا بين ثقافة الأصالة وثقافة المعاصرة فلا تطغى واحدة على أخرى.

هذه المواصفات كلّها تجعل من الكتب غير القصصيّة اليوم مصدرًا أساسيًّا من مصادر الثقافة ومتعة القراءة. شاع قديمًا أنّ كتب المطالعة هي فقط الكتب القصصيّة. ولا أظنّ أنّي أعرف مدرسة يُطلَب فيها إلى التلاميذ أن يطالعوا كتبًا غير قصصيّة. هذه هي حال الكتب التي يُسأل التلاميذ أن يطالعوها في أثناء الدراسة أو في أيّام العُطَل الصيفيّة. لا اعتراض عندي على أن تكون الكتب القصصيّة كتب مطالعة، بل من الضروريّ أن تكون كذلك، إلاّ أنّي أرى أنّ الاقتصار على هذا النوع من الكتب أمر غير جائز. فالكتب العلميّة لم تعد جافّة كما كانت في الماضي، وهي تهيّئ أبناءنا لأن يكونوا جزءًا من العالم الذي يعيشون فيه لا على هامشه، وهي تهيّئ لهم سبيل النجاح في المستقبل مع المهن التي يختارونها وسبيل التفاعل مع الظروف المتغيّرة. إذا كانت الغاية من قراءة الكتب القصصيّة، لا سواها، تحسين أداء الطالب في اللغة العربيّة، فإنّ العديد من كتب المعلومات تُقدَّم اليوم بأسلوب فصيح صحيح ومباشر يعلّم أبناءنا التعبير الواضح الخالي من الدوران حول الفكرة. الأسلوب الجميل هو الذي يعبّر بإيجاز عن الأفكار الواضحة.

خاتمة:

لا بدّ من الإشارة أخيراً إلى أنّ أفضل المواصفات والمعايير هي تلك التي تصلح للتغيير، والتي تكون من المرونة بحيث يدخل عليها من التعديلات ما يناسب الموضوعات المختلفة والظروف المتبدِّلة. كما لا بدّ من الإشارة إلى أنّ ما ورد من آراء في هذه المطالعة هو في مجمله ممّا وصلتُ إليه من خلال تجربتي الشخصيّة في الكتابة للأطفال، وسنوات التعليم في جامعات وبلدان عدّة، ومن خلال معاطاتي المديدة مع الترجمة والنشر. ومع أنّي مطمئنّ إلى ما وصلت إليه، أعلم أنّه قد يكون عند غيري من الباحثين والكتّاب آراء تختلف كثيراً أو قليلاً. أنا أحترم تلك الآراء، ففي تنوّع الآراء وتعدّدها ثروة علينا جميعًا أن نحافظ عليها ونعتدّ بها.

obeikandl.com